

((الفصل الأول))

(ورقة الغريب)

الإحساس بأنك مهم شعور يستجديه أي إنسان ويحاول اقتناصه بكل الطرق الممكنة. ولكن رضاك عما لديك قد يغير إحساسك بكل ما حولك، فكما قال سقراط: "من لا يرضى بما لديه، لن يكون راضيًا إطلاقًا بما يتمنى الحصول عليه" فإن لم يَرْضَ الإنسان بما لديه، تكون نتائج أمانيه غير مرضية!

عمار في بيته الجديد، محمّل في الفضاء الخالي، باحثًا في عقله عن أي لحظة شعر فيها بالأهمية منذ مولده. رغم أنه ولد أبيه الوحيد، إلا أن السرور لم يدخل أسارير وجه أبيه، لأن مولد عمار تزامن مع وفاة جدته، فلم يدخل الفرح البيت في يوم مجيء عمار للحياة.

ومنذ بدايته في التعليم، كان يحظى بدرجات أكثر من جيدة، لكنه لم يتلقَ الاهتمام الذي كان يتلقاه ابن خالته شاكر، ابن مس كوثر، معلمة اللغة العربية. دائماً يقبع في المركز الثاني.

فمهما حاول عمار، ورغم أنه بذاته ابن طيبة، إلا أنه ظل خلف شاكر، مدلل الجميع.

وأثناء شرود عمار في اللاشيء، إذ بباب الشقة يُطرق وكأن حרבاً على وشك أن تبدأ. يفتح عمار الباب ليجد عم فاروق، بواب العمارة، يصرخ بلهجته الصعيدية:

"الحق يا بيه، العمارة اللي جنبينا عاتولع، ومعنجدروش نطفيها"

فيرد عمار:

"وأنا مالي أنا يا عم فاروق؟! انت خضتني يا عم!"

ثم يستنكر فاروق:

"وإنت مالك يا بيه طبعًا، بقولك العمارة اللي جنبينا عاتولع، وده خابطة فينا صوح! يعني كلها تلت ساعات والنار تمسك في عمارتنا، والنار عتطولكم أنتم يا بيه أول ناس، لأن بلكونة سعادتك يا بيه لزقة في الحريقة طس!"

فيركه عمار واقفًا عند باب الشقة، ويركض بأقصى ما لديه ليحاول إخماد النار في أسرع وقت.

-بعد ساعة ونصف

يجتمع عمار مع سكان العمارة المشتعلة وسكان عمارته الذين كانوا يخدمون النار.

ويقول عمار:

"قدر ولطف يا جماعة، الحمد لله لحقنا اللي قدرنا عليه، واللي أدوارهم اتحرقت يعوض عليكم ربنا".

ثم يقول أحد الواقفين لعمار، وكان رجلاً في أواخر الستين من عمره:

"ربنا يخليك يا ابني، وشكرًا على مساعدتك دي. إنت ما شاء الله كنت شغال كأن بيتك هو اللي بيتحرق!"

يساور عمار شعور بسيط بالسعادة، لأنها تقريبًا أول مرة يشيد شخص بعمله أو يشكره على أي شيء. لكنه يضحك لنفسه بعد أن تذكر أنه لم يساعدهم بسبب طبيته ونبله وكل هذا الهراء، بل ساعدهم لأن بيته كان حقًا على وشك الاحتراق.

وأثناء ما كان كل الناس يللمون حاجاتهم، ومن يحمل سطل ماء فارغًا كان قد أحضره ممتلئًا، ومن أحضر شيكارة من الرمل ليساعد في إخماد الحريق، يلحظ عمار بعينه ورقة تسقط من جيب الشيخ الستيني الذي حدثه بعد إخماد الحريق.

وما إن انحنى كي يلتقط الورقة ورفع رأسه لينادي على صاحبها، إذ به يختفي وكأن الأرض انشقت وابتلعتة.

يخرج عمار من الشقة المحروقة التي كان فيها لبحث عن الرجل في أي مكان، لكنه لم يجد له أثرًا. فقرر عمار الاحتفاظ بالورقة حتى اليوم التالي، والعودة للعمارة ليسأل عن الرجل صاحب الورقة، ويُدلي بمواصفاته لبواب العمارة المحترقة.

في غرفة عمار ذات الألوان الداكنة، يستلقي عمار على سريره، مفكرًا في أحداث يومه التي تغيرت نوعًا ما عن روتينه العادي، وأنه أخيرًا قام أحد بشكره على ما فعله. ثم يقول في نفسه:

"يا ترى الورقة بتاعة الراحل الطيب دي فيها إيه؟ ما أفتحها يمكن فيها اسمه ولا حاجة تخليني أدور عليه أسهل من إني أقول شكله للبواب."

فيخرج عمار الورقة من جيبه ويفتحها، ليقرأ أول سطر مما كُتب فيها. ليتجمد الدم في عروقه ويشعر أن كل شعرة بجسده قد استقامت كحرف الألف، وكان المكتوب في الورقة:

"إزيك يا عمار.."

يتجمد عمار في مكانه ذعرًا، حتى أنه لم يُكمل قراءة المكتوب من شدة الخوف. طواها سريعًا ووضعها في جيبه، عازمًا على إعطائها لبواب العمارة المحترقة فور شروق شمس اليوم التالي مباشرة.

وفي صباح اليوم التالي ارتدى عمار شبشبته، لأنه من نوعية البشر الكارهين للأحذية. قد يقول البعض عنه إنه بوهيمي، لكن بالنسبة لعمار الأمر مختلف.

فهو يرى أن الأحذية قفص للقدم، ويقول لنفسه:

"كيف لي وأنا أعيش في قفص الحياة أن يكون هناك قفص آخر في قدمي؟"

عند وصول عمار إلى العمارة المحترقة، وجد البواب كعادة حراس العقارات التقليديين بجلبائه الواسع. كان يوم الحريق قد ربط جلبابه حول خصره ليساعد سكان عمارته دون أن يشتعل طرفه. أما اليوم، فقد كان جالسًا فاردا جلبابه عكس يوم الحريق، ممسكًا بهاتفه يلعب لعبة "كاندي كراش"، تلك اللعبة المشهورة في الوطن العربي بلعبة العجائز.

كان يهتف بفرح كلما تخطى مرحلة، وكأن عمّارته لم تكن على وشك الاحتراق يوم أمس.

يلقي عليه عمار السلام قائلاً:

"السلام عليكم يا ريس، أنا اللي كنت موجود امبارح في الحريقة... فاكربي؟"

"أيوة طبعًا يا بيه، هو حد يقدر ينسى حضرتك؟"

"حبيبي يا عم... متشرفتش باسمك صحيح."

"اسمي عوض يا بيه."

"تشرفنا يا عم عوض. المهم، كنت جاي أسألك عن الراجل الكُبارة اللي كلمني امبارح بعد الحريقة. فاكراه؟"

"أيوه يا بيه، طبعا فاكراه، محدش غيركم اتكلم أصلاّ"

"حلو أوي. متعرفش الراجل ده اسمه إيه ولا ساكن في أنهي شقة؟ أصلي كنت عايزه في كلمتين."

"والله يا بيه، الراجل ده أول مرة أشوفه امبارح. كنت فاكراه إنه من عنديكم في العمارة."

"إزاي بس يا عم عوض؟ ركز. ده اللي كان بيشكرني امبارح!"

"أيوه يا بيه، عارفه، بس ده مش من سكان العمارة أصلاّ"

"طيب، شكرا يا عم عوض."

يرحل عمار وفي داخله بعض الحيرة، فكيف لرجل أن يشكره جزيل الشكر على مجهوده في إنقاذ بنائتهم، وهو ليس من سكان البناية من الأساس؟

فيخطر على بال عمار شيء لم يفكر فيه:

"يمكن يكون من سكان عمارتنا. أنا لسه مستجد هنا أنا وعيلتي، ومعرفناش حد غير بواب العمارة، عم فاروق."

يتوجه عمار ليسأل عم فاروق عن الرجل، فيرد عليه:

"مفيش عندينا حد بالشكل ده يا بيه. سكان العمارة أربع شقق أصلاً:

شقتك إنت ووالدك الأستاذ فرج ووالدتك.

شقة الباشمهندس عماد اللي فوقيكم على طول.

شقة أستاذة إسراء، مغتربة سودانية مأجرة الشقة، مش واخداها تمليك.

شقة مدام فيروز، أرملة، ومعندهاش أولاد، وشغالة ممرضة في المستشفى اللي على أول الشارع."

بعد انتهاء فاروق من كلامه، تبدلت مشاعر عمار من القلق إلى الرعب. فهو الآن يمتلك ورقة مكتوب عليها اسمه من شخص يبدو أنه غير موجود في مربعهم السكني من الأساس.

شكر عمار عم فاروق على معلوماته القيمة، واتجه مباشرة لشقته. لكنه تذكر أنه نسي مفتاحه بسبب نزوله السريع، وعدم قدرته على النوم ليلة أمس من شدة التفكير في موضوع الورقة.

وقف عمار أمام باب شقته متأففاً، يعلم ما سيحدث فور طرقة الباب. لكنه يطرق محدثاً نفسه قائلاً: "يلا مش فارقة"

طرق الباب كعادة ثلاث طرقات متتاليات، وظل واقفاً كالمنتظر إعدامه.

فتح له والده الأستاذ فرج، صاحب أكبر محل عطارة في منطقتهم، والذي ورثه عن جد عمار. ورغم أن فرج صاحب محل عطارة، إلا أنه فتح الباب كمخبر يدخل على مجرم، بوجه متجههم وعينين حمراوين. لا تعلم اههما محمران من السجائر لأن الحج فرج كما يقولون (حريقة سجائر) أم أنهما محمران فقط لأنه استيقظ للتو.

ومع فتح الباب، انهالت الشتائم والسباب على وجه عمار:

"حد يصحي حد كده! إنت مبتفهمش يا ابن ال...! هتفضل طول عمرك غبي، مبتحسش!"

وكل هذا اعتاد عليه عمار لدرجة أنه صار يقول ما يقوله والده داخله، وكأنه حفظ التوبيخ عن ظهر قلب. كان التوبيخ دائماً ينتهي بجملة:

"هتفضل طول عمرك ملكش لازمة يا أفضل خلق الله!"

جملة اعتاد عمار على سماعها والأقتناع بها واحيانا كان يقولها لنفسه. ورغم أن والده لم يضربه يوماً، إلا أن كلمة لعمار كان أقوى من ألف سيف، ويؤلم أكثر من ألف ضربة سوط.

ترك عمار والده يناهد ويصرخ، وتوجه لغرفته عابراً الممر الممتلئ
بصور أختيه شهد وألاء - المتزوجتين حالياً - دون أن تكون هناك
صورة شخصية واحدة له.

غير صورة واحدة جماعية للعائلة كلها و يقبع هو في جانب الصورة
كأنه غير مرغوب به

يدخل عمار غرفته وكأنه يدخل عالمه ذو الألوان الداكنة، يستلقي
على سريره كعادته. وبعد فترة من التحديق في اللاشيء، تذكر أمر
الورقة الغامضة، وكأن صراخ والده أنساه رعبه منها لبعض الوقت، اذا
فلصراخ والده فائدة في النهاية.

يخرج عمار الورقة من جيبه، وكل جزء من جسده يرتعش، ويفكر في
ما قد يكون مكتوباً في تكملة الرسالة.

في النهاية، يعزم عمار على فتح الورقة. يفتحها ببطء، ثم يكمل القراءة:
"إزيك يا عمار... طبعاً دلوقتي أنت نزلت تدور عليا في كل مكان
عشان تعرف توصلني وترجعلي الورقة. وده مش من شهامتك، ده
من خوفك من اللي مكتوب فيها.

وعلى فكرة، أنا قصدت أقولك إنك ساعدتنا كأن بيتك هو اللي
هيتحرق، عشان كنت عارف إن بيتك فعلاً هيتحرق.

بس بزمتمك، محسّتش بفرحة إنك لقيت حد يشكرك؟ محسّتش بفرحة إنك اتقدّرت أخيرًا؟ الإحساس اللي أول مرة تحسه في حياتك؟ دايمًا كان التقدير بيروح لحد غيرك، مش كده؟ التقدير في المدرسة كان بيروح لشاكر ابن مس كوثر، اللي هو ابن خالتك. حتى يوم ما اتولدت، ما فرحوش بيك، رغم إنك ولد أبوك الوحيد. لكن يا خسارة، فرحوا بأخواتك البنات أكثر منك، يا أفشل خلق الله."

قرأ أعمار كل جملة، وضربات قلبه كادت تحطم قفصه الصدري من الرعب مع كل حرف يمر عليه. كان هذا الغريب وكأنه يعرف أدق تفاصيل حياته، كأنه عاش معه طيلة حياته، كأنه ظله المُلاصق منذ الولادة.

أكمل أعمار القراءة:

"وطول عمرك حاسس بالفشل. بس معايا، هخليك تحس بقيمتك. هحسسك بنجاحك وبفشل غيرك. هندمهم على كل مرة قالوا عليك فاشل. بس يا عمّورتي، كل حاجة ليها مقابل. مفيش حاجة بتيجي بالساهل..."

"عايز تعرف شروطي؟ قول اسمي تلت مرات وهتلاقيني قدامك:!!! (كرولو)!!!"

لم يعد أعمار مدرّجًا لما حوله. أصبح يشعر وكأن تفكيره خيوط معقودة على شكل كرة. لكن بعد فترة من التفكير في الأمر، أحس ببعض الغباء وسخر من نفسه قائلاً: